بإعادة الصرح الأموى الذى تهدم فى المشرق ؛ وتوطيد دعائم الملك الذى غلب ، وإنشاء أسرة أموية جديدة فى الغرب ، قدر لها أن تسير بالأندلس فى سبيل العظمة والفخار أحقابا

بيد أن هذا الظفر الباهر كانت تغشاه دائماً آلام نفس معذبة ذلك أن المحنة طبعت نفس عبد الرحمن وروحه إلى الأبد بطابع الكآبة والشجن ؛ وهو لم ينس قط أنه سليل دوحة تقصفت واجتثت أصولها الراسخة حيث كانت يانعة زاهرة ، وأنها اجتثت فى مناظر دموية مروعة كان من شهودها وكاد يغدو فى ضحاياها ؛ ومن ثم نراه حتى آخر حياته محزون النفس يتلهف على ماضيه ، ويبكى مجد أسرته ، ويتحسر على فراق وطنه ، وعلى نفيه وغربته وقد انتهت إلينا من شعره أبيات مؤثرة تفصح عن آلامه المنوية مثل قوله فى التشوق إلى ربوع الشام :

أيها الراكب الميمم أرضى أقْرِ من بعضى السلام لبعضى
إن جسمى كما علمت بأرض وفؤادى ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفونى غمضي

وقوله وقد رأى فى الرصافة (١) نخلة منفردة :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى
وطول التنائى عن بنىّ وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة
فمثلك فى الاقصاء والمنتأى مثلى (٢)

تلك هى مأساة عبد الرحمن الداخل ؛ ونقول مأساة لأن الظفر الذى اختتمت به لم ينزع عن هذه الحياة الشاقة لونها المؤسى . وقد كان الداخل بلا ريب من أعظم شخصيات التاريخ الأندلسى ؛ بيد أنه فى حياته الخاصة يبدو لنا دائماً ذلك الطريد الذى تثير محنته وآلامه فى النفس شجنا ، قبل أن تثير أعماله الحافلة فى النفس إعجاباً

محمد عبد الله عنان

(١) رصافة قرطبة ، وقد أنشأها الداخل تشبها بجده هشام حيث أنشأ الرصافة بالشام

(٢) وفى نسبة هذه الأبيات إلى الداخل خلاف

ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ١٠ —

أقف قليلاً حتى أستعد لتدوين ما سمعت من ظمياء . وأشهد أنى سمعت بقية حديثها وأنا كاره ، لأن اسم عبد الحسيب أصبح يزعجنى ، فهو الحبيب الأول ، وأنا إن شاء الهوى سأكون الحبيب الثانى . وحماسة ظمياء فى سرد القصة قد تنتهي بتذكير ليلى بماضيها فتنتكس وتضيع من يدى ، لا قدّر الله ولا سمح . وهل أملك زمامها إلا إن وصلتُ بها إلى ساحل العافية ؟ كتب الله لها السلامة ، وشفى من أجلها جميع المرضى من الملاح !

ومن واجبي نحو نفسى أن أنص بصراحة على أنى لست لئيما كل اللؤم فى هذه القضية — وما أبرّئ نفسى ، إن النفس لأمّارة بالسوء ، إلا ما رحم ربى — فأنا أحب أن تماثل ليلى لأتفرد بهواها ، ولكنى مع ذلك أشعر فى بعض الأحيان أنى أخدمها بإخلاص ، فانه يعزّ علىّ والله أن تُعطب سيدة لها مثل طرفها الساحر ، وصوتها الرخيم . يعزّ علىّ أن تعطب مثل تلك الإنسانة وإن خلت منها يدى ، وهذه فيما أظن أول مرة أشعر فيها بحلاوة الصدق ، فقد مضت أعوام وأنا لا أداوى امرأة جميلة إلا هممت بخطفها من زوجها . وقد وقعت لى من ذلك حوادث سيطول عليها ندمى ، حين أثوب إلى رُشدى ، أنا الطبيب الآثم الذى زعزع عروش السعادة فى كثير من البيوت

أنا أشعر حقاً وصدقاً أن ليلى تهمنى ؛ وأشعر حقاً وصدقاً أنى مستعد للتضحية بنصيبى من هواها ؛ ولكن ما الذى يمنع من الجمع بين المزيتين : عافيتها وسعادتى ؟ يمكن بسهولة أن تصير محبوبتى بلا بغى ولا عُدوان ، والخلاصة أنى أريد أن يُنسى اسم عبد الحسيب ، ولكن كيف ؟ إن قصته تهمنى جداً ، لأنها ستعلمنى كيف أسوس ليلى ، وهذا بيت القصيد ، فقد أصبح مفهوماً عندى أنه كان (عبيطا) لا يعرف ما يأتى وما يدع . وكان مصيره أن يُحرم عطف ليلى ، فيمرض هو فى مصر ، وتمرض هى فى العراق ، وما أحب أن أكون ثالث المرضى !

يضاف إلى هـذا أن ظمياء ستتكلم أيضاً عن درية أخت عبد الحسيب ؛ وهذا الاسم يهمني جداً ، ولا أعرف السبب في ذلك ، ولعلي أعرف بعد حين ، فقد تتذكر الإنسانة التي تحمل هذا الاسم الجميل أن الفتى الذي كان يصارحها وتكاتمه لم ينس أن جسمها كان أخصب جسم تبختر واختال في شارع فؤاد . ولعلها تمرض هي أيضاً فيُدعى لهـا الطبيب الذي يداوي ليلى المريضة في العراق

درية ، متى تمرضين ؟ إخص عليك ! بل متى تتصنعين المرض لأراك — في غير ريبة — ممدَّدة على السرير ؟ متى ؟ متى ؟ إن بلائي سيطول !

* * *

أنا أغار من اسم عبد الحسيب ، فليؤجَّل حديثه لحظات ، ولأدوِّن بعض الوقائع المتصلة بهذه الأحاديث

١ — بجوار دار المعلمين العالية رجل يجلس على الأرض و (يضرب الرمل) وهو معروف لسائر أهل بغداد ، وهو يذكرني بأمثاله من الذين كنت أستخبرهم مصيري في الحب حين كنت أمشي بشارع الخليج . وما كنت أول محب استخبر الرمل ، فزميلي البهاء زهير تنطق أشعاره بأنه كان يعرف جميع من (يضربون الرمل) بالقاهرة

أقول إني أقف دقائق كل صباح حول بساط هذا الرجل وأنا في طريقي إلى الدرس ، والطلبة يمرون فلا ينتقدون أستاذهم ، لأنهم سمعوا أنه أديب فيلسوف لا يهمه غير الوقوف على أحوال المجتمع . ولكن الواقع غير ذلك ، الواقع أني بدأت أتخوف مصيري في هوى ليلى ، وأصبحت كالطفل أصدِّق كل شيء . ولكن كيف أستخبر الرمل والطلبة يغدون ويروحون وأكثرهم يحمل المصورات الشمسية ، وفي مقدورهم أن يأخذوا صورتي على تلك الحال ويقدموها إلى الجرائد فأصبح محور السمر الساخر في الأندية والمعاهد ؟

الحل سهل : أنتظر ذهاب الطلبة للغداء ثم أعرج على ضارب الرمل لأشوف بختي

كذلك فعلت

ويلاه ! ماذا تصنع المقادير ؟

أنا أجلس أمام أحد الدراويش في بغداد لأشوف بختي ، وأنا الذي غلبت الساحر الهندي على شاطيء الاسكندرية في صيف سنة ١٩٣٤ ؟

ليت أيامي تعود !

فما زلت أذكر كيف أعطاني ذلك الساحر الهندي عشرين ديناراً في سبيل أن أترك له التفرد بقراءة الكف لئن يحج ذلك الشاطيء من الظبيات

وخلاصة القصة أني ذهبت في ضحى يوم صائف إلى خليج ستانلي ، ونزلت بثوب البحر إلى ملعب الغزلان ، فرأيت فقيراً هندياً يقرأ الكف لفتاة ناهد تشبه أفروديت ، أو تشبهها أفروديت ، فجلست بجانبهما جلسة الباحث المتعقب ، لا جلسة اللاهي اللاعب ، وما هي إلا لحظات حتى قلت بصوت الواثق بصحة ما يقول : على رسلك أيها الساحر ، فأنت فيما يظهر قليل العلم بأسرار الكف ، وما يجوز لك أن تشغل فتاة بمصيرها على غير هدى . أين تعلمت هذا العلم أيها الدرويش الجهول !

فانزعج الرجل انزعاجاً شديداً ، وفقراء الهنود ضعاف العزائم والقلوب في أكثر الأحيان

ونظرت الفتاة في استغراب وقالت : وخضرتك تعرف علم الكف ؟

فقلت ، وأقسم ما قلت غير الصدق : نعم أعرف علم الكف وهو خير ما تعلمت في باريس !

فانعطفت الفتاة في تخاذل وقالت : تسمح تقرأ لي كفي !

فأخذت يدها ونظرت إلى صدرها مرة وعينيها مرتين ، ثم شرعت أقص عليها أخبار المستقبل وما فيه من ابتسام وأنين

وما هي إلا دقائق حتى كنت ساحر الشاطيء

فهل تعود أيامي ؟ هل تعود ؟ أسرى إلى الهوى !

وتخاذل الساحر الهندي وتضعضع وأقبل يسر في أذني : تتفضل بكلمة ؟ فقلت : نعم . وانتحينا بعيداً عن أسماع الظباء فقال : أعرف أنه لا يفل الحديد إلا الحديد ، وأعرف ثانياً أني أعلم منك بقراءة الكف ، ولكني واثق بالهزيمة إذا ناضلتك ، لأنك تحدث الفتيات بأحاديث أجهلها كل الجهل ، ويغلب على ظني أنك لا تقرأ الكف ، وإنما تقرأ العيون ، ولا علم لي وحياة غاندي بلغة العيون

فقلت : وماذا تريد ، أيها الشيخ ؟

فقال : أرجو أن تبيعنى هذا الميدان

« وعندئذ تذكرت أنى موظف فى الحكومة المصرية وأن من المكن أن يتعقبنى مندوب (آخر ساعة) أو مندوب (روزاليوسف) أو مندوب (الصباح) ، وأن من العقل أن أقبض ما يمكن قبضه وأترك الميدان »

— وماذا تقدم يا شيخ ؟

— أقدم عشرة دنانير

— أنا أترك لك هذا الميدان من أجل عشرة دنانير؟ هيهات!

— يا سيد ، أنت فى وطنك وأنا غريب

— ونحن لا نترك خيرات بلادنا للأجانب

— أنا لست أجنبياً بالمعنى البغيض لهذه الكلمة ، فأنا مسلم مثلك وأتكلم اللغة العربية

— إنك رجل لبق يا شيخ ، ولكنى لا أترك هذا الميدان بعشرة دنانير

— أنا لم أغنم من هذا الموسم غير أربعين ديناراً

— أنت إذاً جهول ! ولو كنت مكانك لجمعت ألف دينار فى شهرين

— هذا ما وقع وأنت تعرف يا سيدى أن عمل السحر صار قليل المكاسب بفضل المقالات التى تكتب ضده كل يوم . وأنت يا زميلى تعرف ما جنت علينا حذلقة أصحاب الجرائد والمجلات

— إذن تدفع عشرين وتحفظ لنفسك عشرين

فقبل الرجل وقدم المبلغ ، فأخذته وانصرفت

وقد علمت بعد ذلك أن عرائس الشاطىء شككن فى قدرته على فهم أسرار الكف فبار سوقه وضاع

أما أنا فمضيت فى دراسة هذا العلم النفيس حتى تفوقت فيه ، ولكل مجتهد نصيب

* * *

أليس من الغريب أن يكون هذا حالى فى العلم بمصاير القلوب ثم أجهل مصير قلبي ؟

إن هذا لدليل على ضعف القدرة البشرية ، إن كان ذلك ما يرتاب فيه الزنادقة والملحدون

جلست إلى الرمل أستلهمه وأستوحيه ، والأمر للهوى

— بابا ، بابا

— نعم يا عمى

— لك أعداء فى الشام ، وسينصرك الله عليهم

— طيب ، طيب ! (وماذا جنيت حتى يكون لى أعداء فى الشام أو لبنان ؟)

— ولك أعداء فى مصر ، وسينصرك الله عليهم ، قل آمين

— آمين ، آمين !

— ولك فى العراق فرد عدو (يعنى عدواً واحداً)

— طيب

— ويجيء إليك فرد مكتوب

— من وين يا عمى ؟

— من بغداد

— خير ، خير

— وأنت تحب فرد امرأة ، وأكو [1] ناس يحسدونك

— أكو خوف يا عمى ؟

— ما كو خوف ، ولكن احترس

فنفحت الرجل درهما [2] ومضيت

وبالقرب من جامع مرجان سمعت صوتاً ينادينى فالتفت فإذا أحد سعاة البريد يقدم إلىّ خطاباً فعجبت من أن تفضحنى ليلى إلى هذا الحد ، ونظرت فرأيت العنوان مكتوباً بهذه الصورة الطريفة :

« لحضرة الأستاذ الخفيف الروح الدكتور زكي مبارك

يسلم إليه أثناء تجواله فى شوارع بغداد ! ! »

شيء ظريف حقاً ! وأى ظرف أروع وأمتع من أن تصبح دار إقامتى موزعة بين شوارع بغداد ، وأن ترى مصلحة البريد أنها مسئولة عن البحث عنى فى شوارع بغداد ؟

إن مرسل هذا الخطاب لا بدّ أن يكون أظرف الناس . وإذا كان العنوان بهذه الصورة من اللطف فسيكون الخطاب ولا ريب آية الآيات فى خفة الظل ولطف النسيم

(١) أكو : يوجد ، ويقابلها (ما كو) أى لا يوجد . فى اللهجة العراقية

(٢) كلمة (درهم) لا تزال حية فى العراق وهى قطعة تساوى (الربع ريال) فى العملة المصرية

ولـكني ما كدت أفض الظرف وأنظر الخطاب حتى انزعجت . فهو بغير إمضاء وكاتبه ينهاني عن عيادة ليلى ، ويهددني بالقتل ... أمري إلى الله لا إلى الهوى !

ورأيت أن أحتاط لنفسي فذهبت أستشير صديقاً بالفوضية المصرية سبقني إلى العراق بسنتين ؛ فكان من رأيه أن أبلغ الخطاب إلى الشرطة . وأكد لي أن العراقيين لا يعرفون المزاح في هذه الشؤون . وبعد ساعة من تسلم الخطاب كنت عند سعادة رئيس الشرطة ، فكان أول كلامه بعد رد التحية أن قال :

— إيش لون ليلى ؟

— أهدّد من أجلها بالقتل !

وقدمت إليه الخطاب فكان يقرأ والغضب ينقله من لون إلى لون ، ثم ابتسم فجأة وقال :

— ولـكنه صفح عنك !

— صفح عني ؟ وكيف ؟

— ألم تقرأ هذه الجملة ؟

ونظرت فإذا في نهاية الخطاب « ولـكني عدلت عن هـذا الخاطر لأني إذا قتلتك قتلت معك علماً غزيراً في الطب ، وذوقاً دقيقاً في الأدب » فعجبت أن تفوتني هذه الجملة ، ولـكن يظهر أن انزعاجي صرفني عن استيعاب الخطاب ؛ والتهديد بالقتل يصنع أشنع من ذلك . عافى الله قراء هذه المذكرات من الأسواء

ولما اطمأننت إلى صفح غريمي في هوى ليلى تشجعت وقلت : ومع هذا فأنا لا أبالي أحداً ، وقديماً قال جميل :

فليت رجالا فيك قد نذروا دمي وهمّوا بقتلي يابثين لقوني
إذا ما رأوني طالعاً من ثنيّة يقولون من هذا وقد عرفوني

فقال رئيس الشرطة وهو يبتسم : يجب أن تثق يا دكتور أن العراقيين يقدسون ضيوفهم بالأرواح ، وهم لا يخافون عليك إلا عادية هواك

* * *

٢ — تفضل سكرتير محطة الاذاعة العراقية فدعاني لإلقاء محاضرة عن الحِكم العطائية ؛ وأنا فيما يظهر رجل خدّاع ، فقد ظن الأستاذ فؤاد جميل أني أصلح الناس للكلام عن حِكم ابن عطاء الله ؛ ولعل حياتي في بغداد هي التي هدته إلى ذلك ، فقد رآني أحفظ آداب الصيام ، وأؤدي الفرائض والنوافل ، فظنني رجلاً تقياً ، ونسي هذا الأديب أن الغريب لا فضل له في التخلق بمكارم الأخلاق . وهل يستطيع رجل مثلي أن ينحرف عن الصراط المستقيم في بغداد ؟ إن استقامتي في هـذه المدينة ليست إلا ضرباً من الآداب الصناعية ، ولن تكون لها قيمة إلا إذا عاملني الله عز شأنه بالمثل المأثور :

« يؤجر المؤمن رغم أنفه »

وهنا أشعر بأن الله تبارك أسماؤه خصني بمزية قليلة الأمثال ، فأنا أحاسب نفسي قبل أن يحاسبني الناس ، وأدوّن عيوبي قبل أن يدونها الكرام الكاتبون ، وربما كنت الرجل الوحيد الذي يخفي حسناته — إن كانت له حسنات — حتى لا تزل قدمه في مزالق الرياء

أقول إني ألقيت محاضرة في محطة الاذاعة عن حِكم ابن عطاء الله ، ولـكني ما كدت أودع جمهور المستمعين حتى كان المذياع يجلجل :

يقولون ليلى في العراق مريضة
فياليتني كنت الطبيب المداويا

وكانت لحظة طرب لن أنساها ماحييت ، فاسم ليلى يشوقني ، وبفضل ليلى رأيت العراق . وبدا لي أن أسأل عن صاحب الفضل في إمتاعي بهذا الصوت ، فعرفت أنه الأستاذ يونس بحري صاحب جريدة العُقاب . ويونس بحري أديب شرب ماء النيل ، وذاق لذة الأسمار في القاهرة ، وعرف كيف تطيب الأصائل والعشيات في مصر الجديدة والزمالك والمعادي وحلوان ، وتمرغ على الرمل المقدس : رمل الأسكندرية وبورسعيد ودمياط ، وقد شاء له وفاؤه لمصر أن يؤنسني بهذا الصوت ، لأنه يعرف أني طبيب ليلى ، ولأنه يعرف أن السيدة نادرة حضرت نادي الصحافة منذ سنين فلم تر إلا أن تجلس بجانبي عند أخذ الصورة التاريخية ليصح لها أن تقول إنها رسمت وبجانبها قلب خفّاق

وليس من التزيد أن أقول إن محاضراتي في الاذاعة ينتظرها الناس في جميع أرجاء العراق ؛ وكذلك كان إلقاء ذلك الصوت بعد محاضرتي شاهداً على حلاوة الدعابة العراقية التي خلدها أبو الفرج الأصفهاني على وجه الزمان

* * *

جلست بعد المحاضرة أستمع هذا الصوت ، والرفاق يضحجون من حولي بالضحك ، وفاتهم أني صرت كالذي قال :

بكت عيني اليسرى فلما زجرتها عن الحلم بعد الجهل أسبلتا معا

فقد كنت أعرف أن ليلى تسمع ، وكنت أعرف أنها ستطرب لهذا الصوت الذي حبسه البغداديون عن أذنها خمس سنين ، وكنت أعرف أنها لو رأتني لقبّلتني . ولكن هل تقبّلني ليلى ؟ ليت ثم ليت !

وخرجت من دار الإذاعة فعبرت دجلة من الكرخ إلى بغداد وأنا في ذهول ، فحدثتني النفس بحلاوة الغرق في ذلك النهر الذي وعى ما وعى ، وضيّع ما ضيّع ، من أسرار القلوب . ثم تذكرت ديوني في القاهرة ، ديوني للوجوه الصِّباح التي تعطّر بأنفاسها نسائم مصر الجديدة والزمالك ، وديوني لعرائس دمياط اللائي تفردن بنعومة الأجسام وعذوبة الأحاديث :

ربّاه صُغْتَ فؤادي من الأسى والحنين
ولم تشأ لضلوعي غير الجوى والشجون
فكيف تصفو حياتي من الهوى والفُتُون
أم كيف تُرجى نجاتي من ساجيات الجفون

وهل من الاثم في هوى ليلى أن أحنّ إلى هوايَ في القاهرة عروس الشرق ؟

هل من الاثم في هوى ليلى أن أتذكر غَبُوقي بمصر الجديدة وصَبُوحي بالزمالك ؟

هل من الاثم في هوى ليلى أن أقول إني أبذل دمي إن استطعت لأقضي ليلة واحدة في ضيافة ليلى الصحيحة في حلوان ؟

متى تعود أيامي وأستأنف اختطاف القبلات في القطار بين المعادي وحلوان ؟!

وما كنت أنتظر أن يخط قلمي أمثال هذه الاعترافات ، ولكني أحب أن تغار الإنسانة التي سيخلّد اسمها شارع العباس ابن الأحنف في بغداد ، فإن غارت فهي ليلى بنت ليل وإلا فهي صخرة تنمرها الثلوج في أقاصي الشمال

وأقسم لئن لم تنته عن تنافلها البغيض لأحدثنّها عن لياليّ وأيامي في فندق مينا هاوس بسفح الأهرام ؛ ولئن فعلت لأصوّبنّ إلى صدرها سهماً مسموماً لا يُرجى منه شفاء

ليلى ، يا بنت الفرات !

أمري وأمرك إلى الهوى ، فإليه ترجع القلوب !

* * *

ألم يأن لي أن أعود إلى حديث الضابط عبد الحسيب ؟

إن حديثه لن يصل إلى ليلى حتى أكون أنسيتُها كل من في الوجود . وهل أمكنَ يوماً أن يكون لي فيمن أحب شريك ؟

فلنقص حديث ذلك الغريم بلا تهيب ولا إشفاق

قالت ظمياء (وما أعذب كلام ظمياء)

— وأفاض الشيخ دعاس في شرح الاستشراق والاستغراب ففهمنا أن المستشرق هو الذي يدّعي علم الشرق ، والمستغرب هو الذي يدّعي علم الغرب . ثم تشعب الحديث من فن إلى فن ، فانتقلنا من الأدب إلى السياسة ؛ وليلى لم تشاطرنا الحديث ، فقد كانت مشغولة البال بانتظار عبد الحسيب . وكانت ترجو أن يكون هو الفتى الذي رافقناه في قطار المرض . وبعد ساعات مرت على ليلى كأنها أعوام دخل شاب أخضر العينين ، وكان هو يا مولاي ، هو نفس الفتى الذي دارت معه ليلى في قطار المرض دورتين

— وكيف كان التلاقي ؟

— فرّت ليلى من وجهه فرار الظبية الضعيفة من القانص الظلوم ، فانزوت في أحد أركان البيت . وألحت السيدة نجلاء في أن تتفضل ليلى بالسلام عليه ، فاعتذرتْ بأن سلام الفتاة على الفتى وهي ليست من محارمه أدب تنكره حرائر العراق

« للحديث شجون » زكي مبارك

المجموعة الأولى للرواية

١٥٣٦ صفحة فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه ، والأوذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص من موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزءين و ٢٤ قرشاً بدون تجليد خلاف أجرة البريد